النشـــــــــرة

تصـــدرها مطـــرانية الـــروم الأرثوذكـــس في بـــيروت

العدد ٣ / ١٩٩٩
الأحد ١٧ كانون الثاني

تذكار أبينا البار المتوشح
بالله أنطونيوس الكبير

اللحن السابع
إنجيل السَحَر العاشر

الـــرســـالـــة (عبرانيين ١٣: ١٧ – ٢١)
الإنـــجـــيـــل (لوقا ١٧: ١٢ – ١٩)

+ البار مكاريوس الكبير

تعيّد الكنيسة المقدسة في التاسع عشر من كانون الثاني لتذكار القديس البار مكاريوس الكبير المصري، الذي عاش ناسكاً في القرن الرابع. اسمه يعني المغبوط، وأصله القبطي هو مقار ويعني الصدق والأمانة. وبالفعل فقد كان صادقاً وأميناً لله حتى أنه نال الغبطة الأبدية في ملكوت الله.

وُلد مكاريوس في قرية اسمها شبشير في الجيزة في مصر حوالي العام ٣٠٠، في عائلة فقيرة ومسكينة. نشأ على التقوى والفضيلة واقتنى إحساساً مرهفاً بالخطيئة. يُقال انه

حين كان يعمل راعي بقرٍ في شبابه سرق مع رفاقه بعض التين وأكل كوزاً واحداً منها، ولمـا وعى الأمر ندم كثيراً وبقي يبكي على خطيئته هذه طيلة أيام حياته.

استهوته الحياة الرهبانية فقرر الإنفراد في كوخ قرب قريته والإنصراف الى الصـــلاة والنسك نظير السائحين على دروب الرب. عندما رأى أبناء بلده فضيلته أرادوا جعله كاهنـــاً لهم، أما هو فلم يرَ ذلك مناسباً لراحة نفسه ولروح النسك فهرب الى مكان بعيد وكان يخدم الله بالصلوات والتأملات والتقشف وصناعة السلال التي كان يبيعها ليقتات من ثمنها.

في موطنه الجديد لم يدعه الشرير يرتاح، لكنه كان يقبل جميع التجـــارب بتواضـــع ووداعة. سقطت فتاة في الزنى وحبلت. ولما سألوها عن الوالد اتهمت المتوحـــد مكـــاريوس، فخرجوا اليه وشتموه وضربوه وأهانوه، وجعلوه يتعهد بأن ينفق عليها وعلى مولودها. قَبِـــلَ بوداعة وعلى صورة معلّمه الأكبر الرب يسوع لم يفتح فمه ولم يبّرر ذاته، بل صار يعمـــل لكي يطعم الفتاة وينفق عليها. ولما حان موعد وضعها تعسّرت ولادتها عدة أيام وأصابتها آلام مبرّحة جعلتها تعي خطيئتها فاعترفت بالحقيقة. خرج سكان القرية الى مكاريوس لكي يطلبـوا السماح، أما هو فلما علم بقدومهم من خادمه، وعلم سبب مجيئهم، خاف من شـــيطان التكـــبر فهرب وسكن برية الإسقيط وكان أول ساكن لها وكان في الثلاثين من عمره.

في الإسقيط قسا مكاريوس على نفسه وتقدّم في الفضائل وشاع صيت قداسته في كـــل مكان فاقتفى أثره الكثيرون وعاشوا معه، وصار مرشداً لهم وأباً روحياً. وفي سن الأربعيـــن ألزمه الرؤساء الروحيون بالسيامه الكهنوتية لكي يستطيع أن يوزّع الأسرار الإلهيـــة ويتمّـــم الخدم الرهيبة لجميع السائحين الذين كانوا يعيشون معه.

كان مكاريوس مثالاً في التواضع حتى انه كثيراً ما كان يسترشد من هم أصغر منـــه سناً. يقال ان الشيطان أراد قتله بالمنجل فلم يفزع بل قال: " إن كان السيد المسيح قد أعطـــاك سلطاناً علي فها أنا مستعد لأن تقتلني". فلم يستطع الشيطان أن يفعل ضده شيئاً بل قال له:

" يا مكاريوس، انت تطرحني أرضاً بقوة عظيمة ولا أتمكن منك. كل ما تعملـــه أعملـــه أنـــا أيضاً. أنت تصوم وأنا لا آكل أبداً. أنت تسهر وأنا لا أنام أبداً. شـــيء واحـــد تغلبنـــي بـــه: تواضعك! من أجل هذا لا أقدر عليك."

حفظ سيرة نسكيه صارمة وحياة تقشفية صعبة. ولكي يحفظ نفسه في الهدوء والصمت حفر في قلايته سرداباً طوله نصف ميل وأبتنى له في آخره مغارة يخلد الـــى هدوئـــها كلمـــا زحمه الناس. ولما كان يمرّ مع تلاميذه بقرب واحة ماء كان يقول لتلاميذه الذين دعوه للإقامة هنا: " إن وجدتم لذة وراحة في ذلك المكان وعشتم من دون تعب وضيق، فكيف تتوقعون اللذة

والراحة من الله "؟ لم يكن يشرب إلا قليلاً من الماء ويأكل قليلاً من الخبز، أما نومه فبإسناد رأسه على الحائط لبرهات وجيزة متباعدة غير متصلة.

كانت محبته لا توصف. يحكى انٍ مريضاً سأله خبزاً طرياً فمشى ستين ميلاً الى الإسكندرية وأحضره له. ومرة اتُهم أحد الإخوة في القلالي بالزنى، فراقبه اخوة آخرون ورصدوا امرأة تدخل الى قلايته فأخبروا مكاريوس. قصد مكاريوس قلاية الأخ، فخاف هذا وخبأ المرأة في صندوق. دخل مكاريوس وجلس على الصندوق ودعا الإخوة الآخرين ليفتشوا. ولم يجسر أحدهم أن يسأله الإبتعاد عن الصندوق. فلما انصرفوا أمسك مكاريوس بيد الأخ وقال له : " أحكم على نفسك يا أخي قبل أن يحكموا عليك لأن الحكم لله" وللوقت تاب الأخ وصار مجاهداً كبيراً. أما مكاريوس فسمع صوتاً يقول له: " طوباك يا مكاريوس رجل الروح، يا من تشبّه بخالقه وستر العيوب مثله". وكان مكاريوس يقول للجميع :" لا تصنع الشر بأحد، ولا تدن أحداً. إحفظ هذين الأمرين فتخلص."

عاش مكاريوس حوالي التسعين سنة وتوفي عام ٣٩١، وقد سُمع صوته الخافت يقول وهو سلم الروح :" يا سيدي يسوع المسيح ، حبيب نفسي، إقبل روحي إليك." فبشفاعة قديسك يا رب ارحمنا وخلصنا.

+ من أقوال البار مكاريوس

قبل وفاته خاطب مكاريوس رهبان جبل نتريا مودّعاً إياهم بما يلي :

" يا أولادي الأحباء ... كثيرة هي أمجاد القدّيسين ... وسبيلنا أن نعرف تدبيرهم وعملهم ... فلقد اقتنوا المسكنة وتواضع النفس وانسحاق القلب والجهاد في الصلاة ومحبة كل الناس وخوف الله... أما الجسد فرفضوا جميع شهواته...

فرّوا من الخطيئة واصبروا الى الموت حفظ وصايا الرب. لا تقبلوا كسر أية وصية مهما كانت صغيرة، لأن كسر أية وصية، صغيرة كانت أم كبيرة، يغضب الله... لا يكن فيكم من يذكر الشر لأخيه... فإن القلب الذي يتفكر بالشر والبغضة لا يمكن أن يكون مسكناً لله... اقتنوا الحب بعضكم لبعض لتقتنوا لأنفسكم كل تدبير الفضائل الأخرى في رهبنتكم.

... النفس التي لا تقبل الوقيعة ولا تفكر في السوء على أحد ولا تميل الى حب الدرهم ولا تميل الى شهوات العالم تستضيء كالشمس... أفعال السوء مدخل للعدو... والواجب أن نحفظ أنفسنا جداً لئلا نصير آنية للشيطان...

ليحرص كل واحد منكم على أن يمدح أخاه في غيبته حتى إذا سمع أخوه بذلك عنه ازداد في محبته ... متى كان قلب الإنسان غير نقي ونيّته غير صافية فلا بد ان قلب أخيه

يحسّ بذلك ... مهما حاول أن يتجمّل بلسانه من نحوه. في قلب الإنسان سرّ إلهي. فإن حدث ان سمع احد كلاماً صدر من أخيه عنه فلا يخبئه في قلبه ويحقد عليه ويحاسنه بلسانه وقلبه غير نقي. فهذه الحال تولّد البغضة المرة والمقت وهي تغضب الله...

كل من يسمع التأديب ولا يقبله ولا يعمل به فهو خاسر نفسه... أوصيكم أن تبالغوا في خدمة القديسين والمرضى وادفعوا لهم قدر قوتكم من عمل أيديكم... كل تعب يتعبه الواحد منا سوف يستعلن له وقت خروج نفسه من الجسد... أحبوا التعب... طوبى لمن يبقى في تعبه فرح القلب لأن التعب هو باب الفردوس المفتوح. أما الذي يطيع ضعف الجسد فإنه يصبح غريباً عن الخيرات المعدّة للمجاهدين ويتولاه الندم في القيامة حين يبقى بعيداً لا يملك إلا الحزن والكآبة التي لا تنفع !

... كل من يلازم فضيلة واحدة ويفرط بأخرى يشبه إنساناً أخذ إناء وملأه زيتاً وأهمل فيه ثقباً، ثم ركب وسافر فما وصل الى نهاية سعيه إلا والإناء فارغ مما فيه ... الوصايا كالسلسلة متى انفكت منها عروة تفلت بأكملها...

سيأتي وقت تسألون فيه عن ثمر كلامي وتعطون جواباً عما سمعتموه مني. فلا تجعلوا كلامي لكم سبب دينونة لأني إنما كلّمتكم لخلاصكم وصحة نفسكم... أفزع الى الله لكي لا تُصطادوا بفخ الغفلة ولا تعتد قلوبكم التهاون... ما دمتم في الجسد فأمسكوا التوبة ولا تدعوها تفلت منكم لأن من فارقها فارقته الرحمة وملكوت السموات ... لنجتهد متشبّهين بالصالحين لئلا نندم عندما نجدهم في النهاية في مجد عظيم... طوبى للذين يعملون بكل قوتهم.

إجلعوا أنفسكم غرباء عن هذا العالم لتصيروا أهلاً للخيرات الأبدية... إن صوم الأربعين هو الخميرة للسنة كلها فيجب أن نتمّمه باحتراس لأن الخميرة إذا فسدت أفسدت العجين لكه... تيقّظوا بالروح وامتلئوا بالإيمان حتى تمضوا الى الرب بدالة وتنالوا الإكليل الذي لا يُبلى ."

+ الحزن

من منا لم يعرف الحزن ؟ وكم مرة سقطنا مثقلين بالأحزان لا نعرف للخروج منها سبيلاً ؟ إنه من نوافل الكلام أن نستفيض، محدّدين معالم الحزن، واصفين دقائقه، لأنه أحياناً أقرب منا الى أنفسنا.

كثيرون منا يسألون عن سبب وجود الحزن ويضيفون سائلين كيف يواجه المسيحي أحزانه؟

نبدأ بالقول إن الحزن وإن كان يسبّب ألماً للنفس إلا أنه ليس سلبياً بالمطلق. ولا نقول هذا سعياً الى إذكاء الألم لتعذيب النفس. ليس تعذيب النفس، أو الجسد، فضيلة مسيحية. إنما نقول إن الحزن يحمل في طياته أموراً خيّرة ويعطي ثماراً نافعة لطالما جهلناها أو تجاهلناها، مما يزيد من حدة أحزاننا.

قد يقول بعض منا إن الله يستسيغ إحزاننا، خاصة وأنه القدير، القادر على كل شيء، وهو لذلك لا يعرف معنى الحزن. طبيعي القول إن هذا الرأي ليس صحيحاً، لأن الله يحزن أيضاً وقد رأيناه في شخص أبنه الحبيب يختبر الحزن، عندما جاء مع تلاميذه الى الجسمانية " وابتدأ يحزن ويكتئب وقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت. أمكثوا هنا واسهروا معي " (متى ٢٦ : ٣٧ و٣٨)، كما رأيناه يبكي لموت صديقه لعازر. لقد اختبر السيد الحزن البشري ليقدّسه وليفتح باب الرجاء على أحزاننا حتى لا يبقى حزننا عبثياً. وهو وعدنا قائلاً : " الحق الحق أقول لكم إنكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح. إنكم ستحزنون ولكن حزنكم يتحوّل الى فرح. المرأة وهي تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت ولكن متى ولدت الطفل لا تعود تذكر الشدّة لسبب الفرح لأنه قد ولد إنسان في العالم. فأنتم كذلك عندكم الآن حزن ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم " (يوحنا ١٦: ٢٠-٢٢).

اين نجد الفرح الحقيقي وكيف نحصل عليه؟ يجيب السيد: " الحق الحق اقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم. الى الآن لم تطلبوا شيئاً بإسمي. أطلبوا تاخذوا ليكون فرحكم كاملا" (يوحنا ١٦: ٢٣و٢٤) هل هذا يعني أن الذي يطلب من الرب فرحاً حقيقياً لا يعرف الحزن أبداً ؟ كلا، بل إنه يكتشف الجانب الإيجابي من الحزن. ونسأل أيضاً هل للحزن جانب ايجابي ؟ إننا في اكتشافنا الجانب الإيجابي من الأحزان نعرف تعزية تساعد على تهدئة الاضطراب وتخفيف القلق. ولنأخذ على ذلك مثال حبة الحنطة المغروسة في باطن الأرض، إنها لا تعطي ثمراً ما لم تتعرّض للمطر والصقيع والحرارة وحتى للتعفن والموت. لا يكون ثمر بلا حزن. ثمرة الحزن الأولى هي النضج والابتعاد عن السطحية لبلوغ العمق. إن الحزن يدفع على الجهاد ويحرّك النفس للانطلاق. الحزن لغير المؤمن مفيد أيضاً. فهو ينبهه الى ضرورة العودة الى الله والى الذات لإقامة سلام داخلي ومصالحة مع الخالق ومع الآخر. من لا يعرف الحزن لا يعرف طريق التوبة لأن الحزن ينبّه الخاطيء الى ضرورة سلوك درب التوبة. الخطيئة تولّد الحزن والتوبة تعيدنا الى فرح الآب. التوبة الصادقة هي من ثمار الحزن على الذات الخاطئة. وإن لم يكن الحزن ناتجاً عن الخطيئة فهو يعطي صاحبه قوى الصبر على تحمّل المشقات ويؤهّله لحمل إكليل الظفر والانتصار على ضعف الذات البشرية. الحزن يولّد الحكمة لأنه مصدر لاختبار الحياة وفهم معانيها. الحزن يعلّم الانتباه واليقظة الدائمة. من

كبرت أحزانه عرف الله طبيباً شافياً ومبلسماً لجراحه فيزداد اتكاله عليه. في اختبارنا للحزن نعرف الله قاضياً ديّاناً يسأل ويحاسب ونعرفه طبيباً شافياً من الخطيئة ومعلّماً يرد النفس الضالة الى رحمته العظمى. فالله لا يختار الحزن أداة للتأديب وحسب بل للإصلاح والتوبة. ألم نسمع داوود الملك المرنّم قائلاً: " الى متى أجعل هموماً في نفسي وحزناً في قلبي كل يوم. الى متى يرتفع عدوي علي... أما أنا فعلى رحمتك توكلت يبتهج قلبي بخلاصك" (مزمور ١٣:٢ و٥)

الحزن يعطي النفس قوة الاحتمال ويجعلها قوية لأنها تتدرب على احتمال المشقات فلا تتهاوى أمام التجارب الصغيرة. من يختبر الانتصار على نفسه بعد عبور الأحزان يعرف معنى الاتكال على الله ويدرك عظيم رحمته. إنه يفهم واثقاً أن الله لا يتخلى، حتى في أصعب الظروف، عن المتكلين عليه. من يثق بالله يعرف يقيناً أن فجر الفرح لا بد طالع بعد الحزن، شرط عدم التخلي عن الرجاء. الا يعلّمنا الرسول بولس قائلاً: " لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم" (١تسا ٤:١٣)؟ ويقول أيضاً: اصبروا على شدائد هذا الدهر وأحزانه، لا تواجهوها كما يواجهها الباقون لأننا كتلاميذ ليسوع سوف نعامل "كمضلِّين ونحن صادقون، كمجهولين ونحن معروفون، كمائتين وها نحن نُحيا، كمؤدَّبين ونحن غير مقتولين، كحزانى ونحن دائماً فرحون، كفقراء ونحن نُغني كثيرين كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء " (٢كو٦: ٨-١٠) فلنلق على الرب رجاءنا هو الآتي ليخلّص الؤمنين به " وسيمسح كل دمعة من عيونهم والموت لا يكون في ما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع في ما يعد لأن الأمور الأولى قد مضت" (رؤيا ٢١:٤) هذا مبعث الرجاء ومنبت الفرح، لأن السيد يصنع كل شيء جديداً.

+ الرهبان

يقول البعض انه على الرهبان خدمة العالم كي لا يأكلوا خبز الشعب باطلاً، ولكن علينا أن نفهم جيداً ما تشتمل عليه هذه الخدمة.

الراهب إنسان مصلٍّ يبكي لأجل العالم بأسره، وهذا هو انشغاله الرئيسي.

من الذي يحثّه إذاً على البكاء من أجل العالم كلّه؟

هو السيّد يسوع المسيح، إبن الله ، إنه يمنح الراهب محبّة الروح القدس، وهذا الحب يملأ قلبه بالتوجّع لأجل البشر، لأنهم ليسوا كلّهم على طريق الخلاص. إن السيّد نفسه تفجّع متألماً لأجل شعبه الذي أسلمه للموت على الصليب. أما والدة الإله فإنها حفظت في قلبها هذه

الرأفة نفسها من أجل البشر وكما ابنها الحبيب، فإنها تاقت من كل كيانها لخلاص جميع البشر.

منح السيّد الرب الروح القدس هذا عينه للرسل ولآبائنا القدّيسين ولرعاة الكنيسة. وفي هذا تكمن خدمتنا للعالم. لهذا فإنه لا رعاة الكنيسة ولا الرهبان، بإمكانهم الاهتمام بأشياء هذا العالم ومشاغله، لكن عليهم اتّباع مثال والدة الإله، التي كانت مقيمة في الهيكل، في قدس الأقداس، تدرس ليل نهار أحكام السيّد وتسكن في الصلاة لأجل الشعب.

ليس عمل الراهب خدمة العالم بعمل يديه، فهذا عمل ناس هذا العالم. إن الإنسان في العالم يصلّي قليلاً، لكن الراهب يصلّي باستمرار، وبفضل الرهبان لا تتوقف الصلاة على الأرض، وهذا ما ينفع الكون بأسره لأن العالم يبقى مستمراً بصلاة الراهب. لكن، وإذ تضعف الصلاة، فالكون يفنى.

ماذا للراهب أن يعمل بيديه؟ في يوم عمل واحد يكسب الراهب القليل من المال، وما هذا بالنسبة لله؟ ... بينما في فكرة واحدة موافقة لله يصنع العجائب. وهذا ما نعرفه في الكتب المقدسة.

صلّى " النبي موسى " في قلبه فقال الرب السيّد له : " ما بك تصرخ إليَّ ؟ " وهكذا خلص اليهود من المصائب (خر ١٤: ١٥). أما القدّيس أنطونيوس فقد عضد الكون بصلاته ، وليس بعمل يديه. والقدّيس سرجيوس رادونيج (مؤسّس دير " الثالوث " قرب موسكو (١٣١٤ – ١٣٩٢) ساعد شعب روسيّا للتحرّر من هجمة التتار بالصلاة والصوم. والقديس سيرافيم كان يصلّي في قلبه، فحلّ الروح القدس على " موتوفيلوف " أثناء حديثهما. هذا هو عمل الرهبان.

لكن إذا كان الراهب متهاوناً، ولم يوفّق الى تأمل الرب باستمرار في روحه، بل كان يعمل في خدمة السّواح على دروبهم او سائلاً الناس في أعمالهم، فاعرفوا أن هذه الأعمال ترضي الله أيضاً لكنها تبقى بعيدة عن الرهبنة، بل ليست هذه هي الحياة الرهبانية.

على الراهب أن يجاهد بحروب ضد أهوائه، وبمساعدة الله يتغلّب عليها. وأحياناً يكون الراهب في النعمة فيحيا وكأنه في الفردوس بجانب الله، وفي أحيان أخرى يبكي لأجل العالم كلّه لأنه يتوق الى خلاص البشريّة بأسرها.

إن الروح القدس علّم الرهبان محبة الله والعالم.

ربّما تقولون انه لا يوجد بعد رهبان يصلّون للعالم أجمع، لكني أقول، إذا لم يعد في العالم رهبان مثل هؤلاء، فستكون نهاية العالم، بل ستنقض عليه المصائب، وهي حاصلة الآن.

مازال العالم قائماً بفضل ٠صلوات القدّيسين، والراهب مدعو أيضاً لكي يصلّي من أجل العالم بأسره. هذه هي خدمته، لذلك أرجوكم أن لا تثقلوه بالانشغالات الدنيويّة التي تحوّل صلاته وتعيقها. على الراهب أن يحيا في يقظة دائمة، لكنهم إذا أخذوا في الاهتمامات الدنيويّة، فإنهم سيجبون على الأكل أكثر، على الشراهة، ولا يعود بإمكانهم الصلاة كما يجب، لأن النعمة تحب السكنى في الجسد النحيل.

يظن البشر أن الرهبان ذريّة لا نفع فيهم وعديمة الجدوى. إنهم يخطئون في هذا التفكير. العالم لا يعرف أن الرهب إنسان يصلّي لأجل كل الكون. إنهم لا يشاهدون ولا يختبرون صلواتهم، ولا يعرفون بأي فرح وطيب يتقبّل السيّد هذه الصلوات. إن الرهبان يشنّون حرباً ضروساً ضد أهوائهم وبفضل هذه المقاومة، يصيرون كباراً أمام الله.

القديس سلوان الآثوسي